

## النص التاريخي في الرواية الفلسطينية

يحيى يخلف

يقول ادوارد سعيد في كتابه (الثقافة والإمبريالية) ان تاريخ الشعوب سلسلة غير متناهية من السرد، وبهذا المعنى فان لكل فلسطيني روايته، ولو جمعنا هذه الروايات لكان لنا أيضا مجموعة لا متناهية من السرديات، هناك نصوص تاريخية كتبت في الأدب العربي الحديث لأسباب شتى، منها روايات كتبت لاستنهاض الهمم القومية، وإعادة احياء الأمجاد كما فعل جورج زيدان في سلسلة رواياته التي غمس فيها ريشته بمداد التاريخ والحضارة الاسلامية، أو لإعادة انتاج هوية محلية قطرية تجد مرجعيتها بتاريخ قديم مثلما فعل نجيب محفوظ في روايات استلهمت التاريخ الفرعوني، عندما كانت هناك نخب تحدد هوية مصر بالانتساب لتاريخ الفراعنة أو تميل لوضع الحضارة الفرعونية في عناصر الهوية مثل طه حسين وسلامة موسى وغيرهم، حيث كانت الدولة الفرعونية المستقلة ذات الحضارة الأولى والأرقى في تاريخ البشرية.

وفي أوروبا كتبت روايات مثلت ورائق اجتماعية على أسلوب الحياة ونمط التفكير والسلوك والصراع الاجتماعي والطبقي كما فعل شارلز ديكنز في رواية (قصة مدينتين) التي كانت بمثابة توثيق للثورة الفرنسية، ومنها روايات ضببت خطواتها مع خطوات الثقافة الاستعمارية السائدة وعبرت عن اوضاع اجتماعية او نزعات للمغامرة والذهاب بعيدا مع طموحات المستعمرين ومغامراتهم في ما وراء حدود دولهم الى الاراضي الواقعة تحت سيطرتهم، مثل (قلب الظلام) لجوزيف كونراد، وأعمال جين اوستن، وهرمان ملفل وسواهم من المؤلفين الذين يسكنون تاريخ مجتمعاتهم ويعبرون عنها فيؤثرون ويتأثرون بذلك التاريخ.

وبعيدا عن الإطالة، فإننا نطرح السؤال الذي طرحه ادوارد سعيد وهو يقوم باستقراء التاريخ في كتابه: الثقافة والامبريالية من خلال الروايات والسرد: كيف يمكننا أن نفهم الظروف التاريخية

لحقة زمنية معينة من خلال نص أدبي أو رواية أو ملحمة شعرية ؟ يجب على ذلك بالقول: لا نفهم التاريخ من خلال سرد بارد أو القوائم والجداول أو على الإحصائيات والفهارس، وهذا يعني ان التاريخ يقرأ من خلال تحليل وتفكيك نصوص الروايات والظروف التاريخية التي كتبت فيها . ولكي نفهم تاريخ فلسطين وشعبها يجب ان نقرأ النصوص في إطار التاريخ الذي كتبت فيه، فعندما بدأت التراجيديا الفلسطينية كان الأوروبيون بسياساتهم الاستعمارية يسيطون نفوذهم على اكثر من ٨٠% من الكرة الأرضية، وكانت الدول الاستعمارية تنهياً للسيطرة على بلاد الشام ومصر والعراق بعد هزيمة السلطنة العثمانية ( الرجل المريض) في الحرب العالمية الأولى، ويقتضي الأمر هنا تحليل وتفكيك السياسات الإستعمارية على مدى امتداد أمد عذابات الشعب الفلسطيني والتعقيم الاستعماري والصهيوني، بل ونفي وطمس هويته وحضوره فوق تراب وطنه عندما كان الشعار الاستعماري الصهيوني، ارض بلا شعب لشعب بلا أرض، فقد رافق انتهاء الحرب العالمية الأولى وثيقة فرنسية بريطانية عرفت باسم اتفاقية سايكس بيكو لاقتسام السيطرة والانتداب على بلاد الشام والعراق، ورافقها كذلك تصريح او وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لقد مثل ذلك مكرًا للتاريخ، وهذا المكر نفى وطمس الرواية الفلسطينية وغيّبها، وفسح المجال للرواية الصهيونية لتكون رواية الأحداث في الشرق الاوسط.

إذن نحن أمام مائة عام من مكر التاريخ، لم يتوقف فيه النص الفلسطيني عن ضبط خطواته مع خطوات قضيته، هذا النص الذي لم يغيب حتى في احلك اللحظات قتامة، خصوصا بعد النكبة، لكنه نهض وتوفرت له العناصر الفنية العالية التي مكنته من الانتشار خصوصا بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وهذا النص سردا كان ام شعرا مثل ثقافة المقاومة، الثقافة التي تروي ما حاولوا طمسه وتغييبه، فكل نص جاد صدر عن مبدع فلسطيني صار بالإمكان اعتباره نصا تاريخيا، لأن كل الكتاب والمبدعين غمسوا فرشاتهم بمداد تاريخهم. النص الفلسطيني بحد ذاته يقول أنا موجود وتاريخي موجود، من روعي الخالدي وحداثته، (تاريخ علم الأدب عند العرب والعجم وفيكتور هيجو) وكتابه عن خطر الصهيونية الى عيسى السفري وكتابه فلسطين بين الانتداب والصهيونية، الى بندلي الجوزي وكتابه (من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) الى نجاتي صدقي وقصصه عن أشجار الزيتون وقصته عن (الأخوات الحزينات) الى ما قدمه من ابداعات بقية أدباء وكتاب وشعراء فلسطين في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي مثل احمد سامح الخالدي، مصطفى مراد الدباغ، عادل زعيتر، خليل السكاكيني، اسعاف النشاشيبي، ابراهيم طوقان، مخلص عبد الخالق، عبد الكريم الكرمي، خليل بيدس، عبد الرحيم محمود، أولئك الذين واجهوا مكر التاريخ بتأسيس مبادئ الوطنية الفلسطينية، وأعادوا الاعتبار للتاريخ الفلسطيني، وقالوا ان

فلسطين هي الجمال المستدام في كل العصور.

وبعد النكبة والشتات وفي غياب الحركة الوطنية من النكبة ١٩٤٨ حتى مطلع الستينات، بالتحديد حتى عام ١٩٦٤ عام تأسيس منظمة التحرير، ظهر جيل من المبدعين ساهم في حماية الهوية وأبقى فلسطين على خارطة الثقافة، في بيروت كان غسان كنفاني وسميرة عزام، وفي غزة معين بسيسو وهارون هاشم رشيد، وفي الأردن والضفة الغربية كانت مجموعة من المبدعين الشباب اطلق عليها مجموعة مجلة الأفق الجديد التي كانت تصدر من القدس.

كان لكل مبدع روايته وسرده وقصيدته، كان كل مبدع يسهم بوضع فلسطين على خارطة، ويسعى لإعادتها الى تاريخها، وهو ما تكرر بعد تأسيس منظمة التحرير.